كتيب آيات القرآن في قلوب
المؤمنين
كتابة واعداد
الأستاذ : سعيد جولان لفته
كتيب جامع لبعض آيات كتاب الله
وهذه الآيات تحتوي على كلمة
(اطيعوا)
2022 م
١٤٤٣ هـ

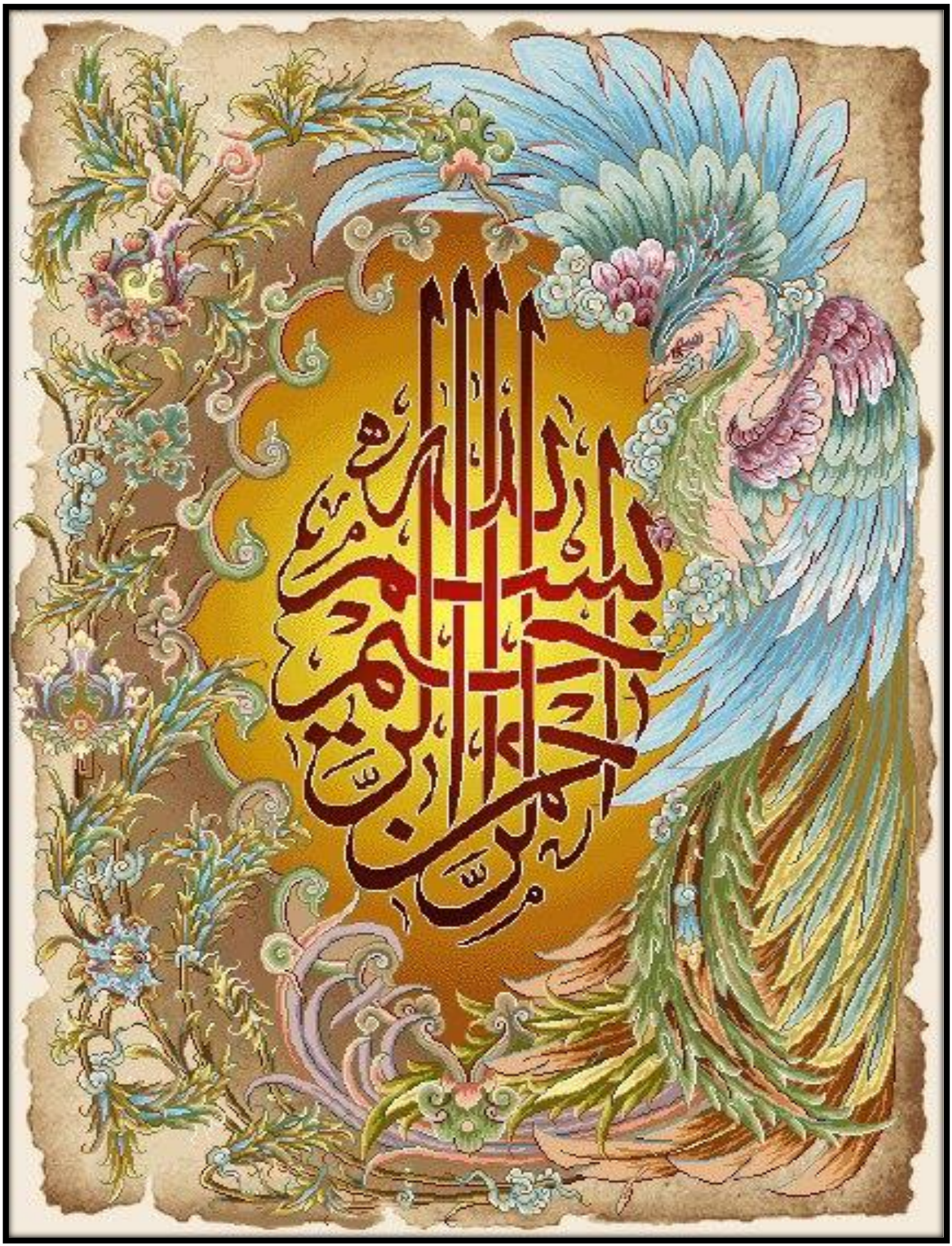
بسم الله الرحمن الرحیم

صدق الله العلي العظيم

ايه (٧) (من سورة ال عمران)

بسم الله الرحمن الرحيم
اللهم صل على محمد وآل محمد
اللهم كن لوليك الحجة بن
الحسن صلواتك عليه وعلى آبائه
في هذه الساعة وفي كل ساعة
وليا وحافظا وقائدا وناصرا ودليلا
وعينا حتى تسكنه أرضك طوعا
وتمتعه فيها طويلا وهب لنا
رأفته ورحمته ودعاءه وخيره
برحمتك يا أرحم الراحمين
اللهم عجل لوليك الفرج

الاهداء

الى رب العرش العظيم وإلى نبي الرحمة محمد صل الله عليه وآلة وسلّم والى الة بيته الطيبين الطاهرين ..

والى من سار على نهج اصحاب الامام الحسين (عليه السلام).

الى شهداء العراق الأبرار الى من باعوا انفسهم ورخصوا دمائهم الى من تركوا الامهات والاباء.

والى المراجع العلى الامام السيد السيستاني (دام ضله).

الى حبيبي ونور عيني الغائب عن الابصار الحاضر في كل مكان بغية الله في أرضه الامام ابا صالح المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف.

المقدمة

خَلَق الله تعالى الإنسان على هذه الأرض، وجعله خليفته فيها؛ يؤدّي ما عليه من واجبات اتجاهه -جلَّ في علاه-، ويقوم بعمارة الأرض، وبناء الأمم والحضارات، وقد أعطى الله تعالى الإنسان قدرات غير عادية ميّزه بها عن سائر مخلوقاته، وأرشده إلى الصواب، والخطأ من خلال رسالاته السماويّة التي أنزلها على رسله الكرام؛ حيث أمرهم بتبليغها للناس، وقد تضمّنت هذه الرسالات النهج القويم الذي إن سار عليه الإنسان سعد في الدارين: الدنيا، والآخرة. بما أنّ الله تعالى هو خالق الإنسان، فهو يعلم عنه أكثر مما يعلم الإنسان ذاته عن نفسه، ومن هنا فإنّ كل ما يصدر عن الله تعالى يصبُّ لا محالة في صالح العبد، حتى لو بدا له للوهلة الأولى غير ذلك؛ فالله تعالى هو وحده من يرى الأمور بشكل شامل، وكامل، وتام، على عكس الإنسان الذي يمتاز بقصر النظر، وقلة المعرفة. إنّ العبد المطيع لله تعالى في أوامره ونواهيه دون اعتراض يُعتبر من أعظم عباد الله على وجه الأرض، وهو بهذه الطاعة المطلقة استحقَّ رضا الله تعالى، والمكانة الرفيعة التي وصل إليها. إلى جانب ذلك، فإنّ الله تعالى يكون دائماً مع هذا النوع من العباد المصطفين؛ فيوفّقهم لكل خير، ويثبت أفئدتهم عند الشدائد، وييسّر لهم عباده الصالحين، ويحميهم من الشرور كلها ما ظهر منها وما بطن، ويبعدهم عن طرق المعاصي، ويُقرّبهم من طرق الخير، ويجعل نفوسهم تفيض رحمةً، ونوراً، ويرزقهم محبّة الناس.

لمّا كان أنبياء الله تعالى ورسله الكرام -عليهم السلام- هم خيرة عباد الله، فهم بالضرورة أكثر الناس طاعةً له في كافة أحوالهم، وأوقاتهم، وهم خير دليل على أنّ الله تعالى يُوفّق من يطيعه دائماً وأبداً، ومن هنا فإنّ اتخاذ هذه الشخصيات الخيّرة النيّرة قدوات لنا يُعتبر حجر الأساس الذي يمكن أن نؤسس عليه نفوساً تسعد بطاعة الله تعالى، والقرب منه. من جهة أخرى، فإنّ طاعة الأفراد لله تَعالى تنعكس مباشرةً على المُجتمعات الإنسانية ككل؛ فتنخفض مُعدّلات الانحرافات التي تفتك بها وتهددها ليل نهار، ويتقارب الناس مادياً، وتقلّ أمراض القلوب التي تنذر بتفكك هذه المجتمعات، وتتأسّس أسر صالحة قادرة على بناء أمم أخلاقية من الطراز الرفيع، وعلى العكس من ذلك، فإنه كلما ابتعد الناس عن الله تعالى وعن طاعته ساءت حياتهم حتى لو بدا لهم أنّها جيدة.

إنّ طاعة الله تعالى في كل صغيرة وكبيرة تُعتبر أولويّةً قصوى، ومُتطلّباً أساسياً للخروج من القاع إلى أعلى القمم، فدونها لن ينعم الإنسان بحياة هانئة، مطمئنة، ولن يتمكّن من عمارة الأرض كما أمر الله، علاوةً على أنه سيكون خاسراً لا محالة يوم الحساب.

- بعض آيات القرآن الكريم التي تناولت الطاعة لله عز وجل والى الرسل والأنبياء (عليهم السلام) والى نبينا محمد صلى الله عليه وآلة وسلّم والى الوالدين

قال تعالى (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) ال عمران اية ٣٢

هذه الآية تتابع حديث الآية السابقة، وتقول: ما دمتم تدّعون الحبّ لله، إذاً اتّبعوا أمر الله ورسوله، وإن لم تفعلوا فلستم تحبّون الله، والله لا يحبّ هؤلاء ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ويستفاد من ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ أنّ إطاعة الله وإطاعة رسوله لا تنفصلان، وأنّ إطاعة الرسول ﷺ هي إطاعة الله، وإطاعة الله هي إطاعة رسول الله ﷺ، لذلك فالآية السابقة تحدّثت عن إطاعة الرسول ﷺ فقط، وهنا دار الكلام عن إطاعتهما كليهما.

قال تعالى (وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) ال عمران اية ٥٠

هذه الآية جاءت على لسان المسيح عليه السلام ولبيان بعض اهداف النبوّة حيث يقول: جئت أُؤكّد لكم التوراة وأُثبت أُصولها ومبادئها ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ كما جئت لأرفع الحظر الذي فرض عليكم، بالنسبة لبعض الأشياء، في دين موسى عليه السلام بسبب عصيانكم - مثل منع لحم الأباعر، وبعض شحوم الحيوانات، وبعض الطيور، والأسماك - ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

وسوف نجد في تفسير الآية ١٦٠ من سورة النساء أنّه بسبب عناد بعض جماعات اليهود وطغيانهم حرّم الله عليهم بعض الطيّبات من النِعم: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾.

إلّا أنّ هذه المحظورات أُحلّت لهم مرّة أُخرى ببركة ظهور المسيح عليه السلام هذا النبيّ العظيم.

ثمّ مرّة أُخرى تتكرّر الجملة التي قرأناها على لسان المسيح في الآية السابقة: ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ) ال عمران اية ١٠٠

أجل إنّ نتيجة الانصياع لمقاصد هؤلاء الأعداء هو الرجوع إلى الكفر لأنّ العدو يسعى في المرحلة الأُولى إلى أن يشعل بينكم نيران العداوة والاقتتال، ولكنه لن يكتفي بهذا القدر منكم، بل سيستمر في وساوسه الخبيثة حتى يخرجكم عن الإسلام مرّة واحدة، ويعيدكم إلى الكفر تارة أُخرى.

من هذا البيان اتضح أنّ المراد من الرجوع إلى الكفر - في الآية - هو (الكفر الحقيقي، والانفصال الكامل عن الإسلام) كما ويمكن أن يكون المراد من ذلك هو تلك العداوات الجاهلية التي تعتبر - في حدّ ذاتها - شعبة من شعب الكفر، وعلامة من علائمه، وأثراً من آثاره، لأنّ الإيمان لا يصدر منه إلّا المحبّة والمودة والتآلف، وأمّا الكفر فلا يصدر منه إلّا التقاتل والعداوة والتنافر.

قال تعالى (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) ال عمران آية ١٣٢

ثم إنّه سبحانه يمزج ذلك التهديد بشيء من التشجيع والترغيب للمطيعين والممتثلين لأوامره تعالى إذ يقول: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ) ال عمران آية ١٤٩

قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ فهي تحذر المسلمين من إطاعة الكفّار وتقول: إنّ إطاعة الكفّار تعني العودة إلى الجاهلية بعد تلك الرحلة العظيمة في طريق التكامل المعنوي والمادي في ظل التعاليم الإسلامية.

إنّ إطاعة الكفّار في وساوسهم وتلقيناتهم، والإصغاء إلى دعاياتهم تعني العودة إلى النقطة الأُولى ألا وهي الكفر والفساد والسقوط في حضيض الانحطاط، وفي هذه الصورة يكونون قد ارتكبوا إثماً كبيراً ستلازمهم تبعاته، وآثاره الشريرة، فأية خسارة أكبر من أن يستبدل الإنسان الإيمان بالكفر، والنور بالظلام، والهدى بالضلال والسعادة بالشقاء؟!

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ۖ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) النساء آية ٥٩

الطاعات – عند الفرد المؤمن – إلى طاعة الله سبحانه، وكل قيادة وولاية يجب أن تنبع من ولاية الله سبحانه وذاته المقدّسة تعالى وتكون حسب أمره ومشيئته، لأنّه الحاكم والمالك التكويني لهذا العالم، وكلّ حاكمية ومالكية يجب أن تكون بإذنه وبأمره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾.

وفي المرحلة الثّانية تأمر باتّباع النّبي ﷺ وإطاعته، وهو النّبي المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ولا ينطلق من الأنا، والنّبي الذي هو خليفة الله بين الناس، وكلامه كلام الله، وقد أُعطي هذا المقام من جانب الله سبحانه، ولهذا تكون إطاعة الله ممّا تقتضيه خالقيته وحاكمية ذاته المقدّسة، ولكن إطاعة النّبي واتّباع أمره ناشيء من أمر الله. وبعبارة أُخرى فإنّ الله واجب الإطاعة بالذات والنّبي ﷺ واجب الإطاعة بالعرَض، ولعل تكرار «أطيعوا» في هذه الآية للإشارة إلى مثل هذا الفرق بين الطاعتين ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾.

وفي المرحلة الثانية يأمر سبحانه بإطاعة أولي الأمر القائمين من صلب المجتمع الإسلامي، والذين يحفظون للناس أمر دينهم ودنياهم.

من هم أُولو الأمر؟

ثمّة كلام كثير بين المفسّرين في المقصود من أُولي الأمر في هذه الآية، ويمكن تلخيص أوجه النظر في هذا المجال في ما يلي:

١ – ذهب جماعة من مفسّري أهل السنّة إلى أنّ المراد من «أُولي الأمر» هم الأمراء والحكام في كل زمان ومكان، ولم يستثنِ من هؤلاء أحداً[1]، فتكون نتيجة هذا الرأي إنّ على المسلمين أن يطيعوا كل حكومة وسلطة مهما كان شكلها حتى إذا كانت حكومة المغول، ودولتهم الجائرة.

٢ – ذهب بعض المفسّرين – مثل صاحب تفسير المنار وصاحب تفسير في ظلال القرآن وآخرون – إلى أنّ المراد من «أُولي الأمر» ممثلو كافة طبقات الأُمة، من الحكام والقادة والعلماء وأصحاب المناصب في شتى مجالات حياة الناس، ولكن لا تجب طاعة هؤلاء بشكل مطلق وبدون قيد أو شرط، بل هي مشروطة بأن لا تكون على خلاف الأحكام والمقررات الإسلامية.

---

(١) تفسير درّ المنثور، ج ٢، ص ٥٧٢، ذيل الآية مورد البحث.

٣ - ذهبت جماعة أُخرى إلى أنّ المراد من «أُولي الأمر» هم القادة المعنويون والفكريون، أي العلماء والمفكرون[١] العدول العارفون بمحتويات الكتاب والسنة معرفة كاملة.

٤ - وذهب بعض مفسّري أهل السنة إلى أنّ المراد من هذه الكلمة هم «الخلفاء الأربعة»[٢] الذين شغلوا دست الخلافة بعد رسول الله خاصّة ولا تشمل غيرهم، وعلى هذا لا يكون لأُولي الأمر أيّ وجود خارجي في العصور الأُخرى.

٥ - يفسر بعض المفسّرين «أُولي الأمر» بصحابة الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله [٣].

٦ - هناك احتمال آخر يقول - في تفسير أُولي الأمر - إنّ المراد منه هم القادة العسكريون المسلمون، وأمراء الجيش والسرايا[٤].

٧ - وذهب جميع مفسّري الشيعة بالاتفاق إلى أنّ المراد من «أولي الأمر» هم الأئمّة المعصومون عليهم السلام [٥] الذين أُنيطت بهم قيادة الأُمة الإسلامية المادية والمعنوية في جميع حقول الحياة من جانب الله سبحانه والنّبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ولا تشمل غيرهم، اللّهم إلاّ الذي يتقلد منصباً من قبلهم، ويتولى أمراً في إدارة المجتمع الإسلامي من جانبهم - فإنّه يجب طاعته أيضاً إذا توفرت فيه شروط معيّنة، ولا تجب طاعته لكونه من أُولي الأمر، بل لكونه نائباً لأُولي الأمر ووكيلاً من قبلهم.

والآن لنستعرض التفاسير المذكورة أعلاه باختصار:

لا شك أنّ التّفسير الأوّل لا يناسب مفهوم الآية وروح التعاليم الإسلامية بحال، إذ لا يمكن أن تقترن طاعة كل حكومة - مهما كانت طبيعتها - ومن دون قيد أو شرط بإطاعة الله والنّبي، ولهذا تصدى كبار علماء السنّة لنفي هذا الرأي والتّفسير مضافاً إلى علماء الشيعة.

وكذا التّفسير الثّاني: فإنّه لا يناسب إطلاق الآية الشريفة، لأنّ الآية توجب إطاعة أُولي الأمر من دون قيد أو شرط.

وهكذا التّفسير الثّالث، يعني تفسير «أُولي الأمر» بالعلماء والعدول والعارفين بالكتاب والسنّة، فهو لا يناسب إطلاق الآية، لأنّ لإطاعة العلماء واتباعهم شروطاً من

(١-٤) تفسير الدرّ المنثور، ج ٢، ص ٥٧٢، ذيل الآية مورد البحث.

(٥) أصول الكافي، ج ١، ص ١٨٧ ، ١٨٩.

جملتها أن لا يكون كلامهم على خلاف الكتاب والسنّة، وعلى هذا لو ارتكبوا خطا (لكونهم عرضة للخطأ وغير معصومين) أو انحرفوا عن جادة الحقّ لأي سبب آخر لم تجب طاعتهم، في حين توجب الآية الحاضرة إطاعة أُولي الأمر بنحو مطلق كإطاعة النّبي ﷺ، هذا مضافاً إلى أنّ إطاعة العلماء إنّما هي في الأحكام التي يستفيدونها من الكتاب والسنّة، وعلى هذا لا تكون إطاعتهم شيئاً غير إطاعة الله وإطاعة النّبي ﷺ، فلا حاجة إلى ذكرها بصورة مستقلة.

وأمّا التّفسير الرّابع (وهو حصر عنوان أُولي الأمر بالخلفاء الأربعة الأوائل) فمؤداه عدم وجود مصداق لأُولي الأمر بين المسلمين في هذا الزمان هذا مضافاً إلى عدم وجود دليل على مثل هذا التخصيص.

والتّفسير الخامس والسّادس: يعنيان تخصيص هذا العنوان بالصحابة أو القادة العسكريين المسلمين، ويرد عليهما نفس الإشكال الوارد على التّفسير الرّابع، يعني أنّه لا يوجد أي دليل على مثل هذا التخصيص أيضاً.

وقد أراد جماعة من مفسّري السنّة مثل «محمّد عبده» العالم المصري المعروف - تبعاً لبعض ما قاله المفسّر المعروف الفخر الرازي - أن يقبل بالاحتمال الثّاني (القاضي بأنّ أُولي الأمر هم ممثلو مختلف طبقات المجتمع الإسلامي من العلماء والحكام وغير هؤلاء من طبقات وفئات المجتمع الإسلامي) مشروطاً ببعض الشروط ومقيداً ببعض القيود، مثل أن يكونوا مسلمين (كما يستفاد من كلمة «منكم» في الآية) وأن لا يكون حكمهم على خلاف الكتاب والسنة، وأن يحكموا عن اختيار لا جبر ولا قهر، وأن يحكموا وفق مصالح المسلمين، وأن يتحدثوا في مسائل يحقّ لهم التدخل فيها (لا مثل العبادات التي لها قوانين وأحكام ثابتة في الإسلام) وأن لا يكون قد ورد في الحكم الذي أصدروه نص خاص من الشرع، وأن يكونوا - فوق كل هذا - متفقين في الرأي والحكم.

وحيث إنّ هؤلاء يعتقدون أن مجموع الأُمّة أو مجموع ممثليها لا تخطىء ولا تجتمع على خطأ، وبعبارة أُخرى، أنّ مجموع الأُمّة معصومة (أو أنّ الأُمّة بوصفها معصومة) تكون نتيجة هذه الشروط وجوب إطاعة مثل هذا الحكم بشكل مطلق ومن دون قيد أو شرط تماماً مثل إطاعة النّبي ﷺ (ومؤدى هذا الكلام هو حجّية الإجماع)، ولكن ترد على هذا التّفسير أيضاً إشكالات واعتراضات عديدة وهي:

أوّلاً: إنّ الاتفاق في الرأي في المسائل الاجتماعية قلّما يتفق وقلّما يتحقق، وعلى هذا فإن هذا الرأي يستلزم وجود حالة من التوافق في أغلب شؤون المسلمين وبصورة دائمة.

وأمّا إذا أراد هؤلاء قبول رأي الأكثرية فيرد عليه أنّ الأكثرية لا تكون معصومة أبداً، ولهذا لا تجب إطاعتها بنحو مطلق.

ثانياً: لقد ثبت في علم الأُصول، أنّه ليس هناك أي دليل على عصمة مجموع الأُمّة من دون وجود الإمام المعصوم بينهم.

ثالثاً: إنّ أحد الشرائط التي يذكرها أنصار هذا التّفسير هو أن لا يكون حكم هؤلاء «أي أُولي الأمر» على خلاف الكتاب والسنة، فيجب حينئذ أن نرى من الذي يشخّص أنّ هذا الحكم مخالف للكتاب والسنّة أو لا؟ لا شك أنّ ذلك من مسؤولية المجتهدين والفقهاء العارفين بالكتاب والسنّة، ويعني هذا أنّ إطاعة أُولي الأمر لا تجوز بدون إجازة المجتهدين والعلماء، بل تلزم أن تكون إطاعة العلماء أعلى من إطاعة أولي الأمر، وهذا لا يناسب ولا يوافق ظاهر الآية الشريفة.

صحيح أن هؤلاء اعتبروا العلماء جزءاً من أُولي الأمر، ولكن الحقيقة أنّ العلماء والمجتهدين - وفق هذا التّفسير - اعترف بهم على أنّهم المراقبون والمراجع العليا من بقية ممثلي مختلف فئات الأُمّة، لا أنّهم في مستوى بقية الممثلين المذكورين، لأنّ على العلماء والفقهاء أن يشرفوا على أعمال الآخرين ويشخّصوا موافقتها للكتاب والسنّة، وبهذا يكون العلماء مراجع عُليا لهم، وهذا لا يناسب التّفسير المذكور ولا يوافقه.

وعلى هذا الأساس يواجه التّفسير الحاضر (أي الثّاني) إشكالات ومآخذ من وجهات عديدة.

فيبقى تفسير واحد سليماً من جميع الاعتراضات السابقة وهو التّفسير السّابع: (وهو تفسير أُولي الأمر بالأئمّة المعصومين عليهم السلام لموافقة هذا التّفسير لإطلاق وجوب الإطاعة المستفاد من الآية المبحوثة هنا، لأن مقام «العصمة» يحفظ الإمام من كلّ معصية ويصونه عن كل خطأ، وبهذا الطريق يكون أمره - مثل أمر الرّسول - واجب الإطاعة من دون قيد أو شرط، وينبغي أن يوضع في مستوى إطاعته صلى الله عليه وآله، بل وإلى درجة أنها تعطف على إطاعة الرّسول من دون تكرار «أطيعوا».

والجدير بالانتباه أنّ بعض العلماء المعروفين من أهل السنة، ومنهم المفسر

المعاصرين أن تتعطل مسألة إطاعة «أُولي الأمر»، أو تصير مسألة نادرة واستثنائية جداً . . .

ومن كل ما قلناه نستنتج أنّ الآية الشريفة تثبت قيادة وولاية الأئمّة المعصومين الذين يشكلون نخبة الأُمّة الإسلامية (تأمل).

أجوبة على أسئلة:

ثمّ إنّ هناك اعتراضات ومآخذ على هذا التّفسير (السّابع) يجدر طرحها هنا بتجرّد وموضوعية:

١ - إذا كان المراد من «أُولي الأمر» هم الأئمّة المعصومون، فإنّ ذلك لا يناسب كلمة «أُولي» التي هي بصيغة الجمع، لأنّ الإمام المعصوم في كل عصر، شخص واحد لا أكثر.

والجواب على هذا السؤال: أنّ الإمام المعصوم وإن كان في كل عصر شخصاً واحداً لا أكثر، إلاّ أنّ الأئمة المتعددين في الأعصر المختلفة يشكّلون جماعة، ونحن نعلم أنّ الآية لا تحدد وظيفة الناس في عصر واحد.

٢ - إنّ أُولي الأمر - بهذا المعنى - لم يكونوا في عصر النّبي ﷺ فكيف أمر القرآن الكريم بإطاعتهم؟

إنّ الجواب على هذا السؤال يتّضح أيضاً من الكلام السابق، لأنّ الآية لا تنحصر (أو لا تعني) زماناً خاصاً، بل توضح وتبيّن وظيفة المسلمين وواجبهم في جميع العصور والقرون.

وبعبارة أُخرى، يمكن أن نقول إنّ أُولي الأمر في زمان النّبي ﷺ كان شخص النّبي بالذات، لأن النّبي ﷺ كان له منصبان منصب «الرسالة» الذي أشير إليه في الآية المذكورة تحت عنوان (أطيعوا الرّسول) والآخر منصب «قيادة الأُمّة الإسلامية» الذي ذكره القرآن الكريم تحت عنوان (أُولي الأمر).

وعلى هذا يكون القائد ووليّ الأمر المعصوم في عهد النّبي هو النّبي ﷺ، فهو مضافاً إلى ما له من منصب الرسالة وإبلاغ الأحكام الإسلامية، له منصب قيادة الأُمّة وولاية أمرها، ولعل عدم تكرار جملة (وأطيعوا) بين (الرّسول) و(أُولي الأمر) لا يخلو من الإشارة إلى هذه النقطة.

وبعبارة أُخرى إن منصب «الرسالة» ومنصب «أولي الأمر» منصبان مختلفان اجتمعا

في شخص رسول الله ﷺ، ولكن المنصب الثّاني فقط يتوفر في كل إمام على حدة، فللإمام منصب أُولي الأمر فقط.

٣ - إذا كان المقصود من «أُولي الأمر» هم الأئمّة المعصومون، فلماذا أشار سبحانه في ذيل الآية إلى مسألة التنازع والاختلاف بين المسلمين إذ قال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ فإنّنا لا نشاهد هنا أي حديث عن «أُولي الأمر» بل أشير إلى الله تعالى (كتاب الله - القرآن) والنّبي (السنّة) كمرجع يجب أن يرجع إليه المسلمون عند الاختلاف والتنازع.

في الإجابة على هذا الإشكال يجب أن نقول:

أوّلاً: إنّ هذا الإشكال لا يختص بالتّفسير الشّيعي لهذه الآية، بل يرد على بقية التفاسير أيضاً، إذا أمعنّا النظر قليلاً.

وثانياً: لا شك أنّ المراد من الاختلاف والتنازع في العبارة الحاضرة هو الاختلاف والتنازع في الأحكام، لا في المسائل المتعلقة بجزئيات الحكومة والقيادة الإسلامية، لأنّه في هذه المسائل يجب إطاعة أُولي الأمر (كما صرّح بذلك في الجملة الأُولى من الآية المبحوثة هنا).

وعلى هذا فالمراد من الاختلاف هو الاختلاف في الأحكام والقوانين الكلية الإسلامية التي يعود أمر تشريعها إلى الله سبحانه ونبيّه ﷺ، لأنّنا نعلم أنّ الإمام مجرّد منفّذ للأحكام الإلهيّة وليس مشرّعاً، ولا ناسخاً لشيء من تلك الأحكام، وإنّما عليه فقط أن يطبّق الأحكام والأوامر الإلهيّة والسنّة النّبوية في حياة الأُمة، ولهذا جاء في أحاديث أهل البيت عليهم السلام أنّهم قالوا: «إذا بلغكم عنّا ما يخالف كتاب الله وسنة نبيّه فاضربوه عرض الحائط ولا تقبلوه» أي يستحيل أن نقول ما يخالف كتاب الله وسنة نبيّه ﷺ.

وعلى هذا فإنّ أوّل مرجع يرجع إليه المسلمون لحلّ خلافاتهم في الأحكام الإسلامية هو الله سبحانه والنّبي الأكرم ﷺ الذي يوحى إليه، وإذا ما بيّن الأئمّة المعصومون أحكاماً، فإنّ تلك الأحكام ليست سوى اقتباس من كتاب الله، أو هي من العلوم التي وصلت إليهم من النّبي الأكرم ﷺ، وبهذا تتّضح علّة عدم ذكر أُولي الأمر إلى جانب المرجع في حلّ الاختلاف في الأحكام المذكورة في هذا الجزء من الآية[1].

---

(١) وإذا رأيناه سبحانه يرجع الأُمّة في حلّ بعض اختلافاتها إلى أُولي الأمر في الآية (٨٣) من هذه =

شهادة الأحاديث

هذا وقد وردت في المصادر الإسلامية أيضاً أحاديث تؤيد تفسير «أُولي الأمر» بأئمّة أهل البيت عليهم السلام منها:

١ - ما كتبه المفسّر الإسلامي المعروف أبو حيان الأندلسي المغربي (المتوفى عام ٧٥٦) في تفسيره البحر المحيط من أنّ هذه الآية نزلت في حقّ علي عليه السلام وأهل بيته[١].

٢ - روى العالم السنّي أبو بكر بن مؤمن الشيرازي في رسالة الاعتقاد (حسب نقل الكاشي في المناقب) عن ابن عباس أنّ الآية الحاضرة نزلت في علي عليه السلام عندما خلفه رسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة (في غزوة تبوك) فقال علي عليه السلام: يا رسول الله تخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى حين قال اخلفني في قومي وأصلح فقال عزّ وجلّ: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٢].

٣ - وروى الشيخ سليمان الحنفي القندوزي وهو من أعلام أهل السنّة المشهورين في كتابه «ينابيع المودة» من كتاب «المناقب» عن «سليم بن قيس الهلالي» قال سمعت علياً صلوات الله عليه يقول: وأتاه رجل فقال أرني أدنى ما يكون به العبد مؤمناً، وأدنى ما يكون به العبد كافراً، وأدنى ما يكون به العبد ضالاً فقال: قد سألت فافهم الجواب... وأمّا أدنى ما يكون العبد به ضالاً أن لا يعرف حجة الله تبارك وتعالى وشاهده على عباده الذي أمر الله عزّ وجلّ عباده بطاعته وفرض ولايته. قلت: يا أمير المؤمنين. صفهم لي. قال: الذين قرنهم الله تعالى بنفسه وبنبيّه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

فقلت له: جعلني الله فداك أوضح لي؟ فقال: الذين قال رسول الله صلى الله عليه وآله في مواضع وفي آخر خطبة يوم قبضه الله عزّ وجلّ إليه: «إنّي تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدي إن تمسكتم بهما: كتاب الله عزّ وجلّ وعترتي أهل بيتي»[٣].

= السورة فالمراد منه ليس هو الاختلاف في الأحكام والقوانين الإسلامية الكلية، بل هو - كما سيأتي في تفسير هذه الآية - الإختلاف في المسائل المتعلقة بطريقة تطبيق الأحكام الإسلامية، وسيأتي شرح مفصل في هذا المجال عند تفسير الآية بإذن الله.

(١) البحر المحيط، ج ٣، طبعة مصر، ص ٤٢٥.

(٢) إحقاق الحق، ج ٣، ص ٤٢٥.

(٣) ينابيع المودة طبعة النجف الأشرف (الطبعة السابعة ص ١٣٦ - ١٣٧)، وبحار الأنوار، ٦١، ص ١٧.

٤ - وكذلك كتب نفس العالم في كتاب «ينابيع المودة»: وفي المناقب في تفسير مجاهد أنّ هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين علي عليه السلام[١].

٥ - رويت أحاديث كثيرة في مصادر الشيعة مثل كتاب الكافي وتفسير العياشي وكتب الصدوق ومصنفاته وغيرها تشهد جميعها بأنّ المراد من «أُولي الأمر» هم الأئمّة المعصومون، حتى إن بعضها ذكر أسماء الأئمّة عليهم السلام واحداً واحداً[٢].

قال تعالى (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ۚ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) المائدة آية ٩٢

في هذه الآية يأمر المسلمين: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ﴾.

ثمّ يتوعّد المخالفين بالعقاب، وأنّ مهمّة رسول الله ﷺ هي الإبلاغ: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

قال تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ۖ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) الأنفال آية ١

سبب النزول

ورد عن ابن عباس أنّ النّبي ﷺ عيّن في يوم معركة بدر جوائز للمقاتلين المسلمين ترغيباً، كأن يقول ﷺ مثلاً: من جاءني بفلان من الأعداء أسيراً فله عندي كذا «جائزة».

وكان هذا الترغيب - إضافة إلى إيقاده روح الإيمان والجهاد في وجودهم - مدعاة إلى أن يثب المقاتلون الفتية في تسابق «افتخاري» نحو الهدف.

إلاّ أنّ الكهول والشيوخ ظلّوا ثابتين تحت ظلال الرايات، فلمّا انتهت معركة بدر أسرع المقاتلون الفتيان لأخذ الجوائز من النّبي، إلاّ أنّ الشيوخ وكبار السنّ قالوا: إنّ لنا نصيباً أيضاً، لأنّنا كنّا سنداً وظهيراً لكم، ولو اشتدّ بكم الأمر لرجعتم إلينا حتماً، واحتدم النقاش حينئذ بين رجلين من الأنصار في شأن غنائم المعركة.

فنزلت الآية - محل البحث - وقالت بصراحة: إنّ الغنائم هي للنبيّ ﷺ، فله أن يتصرّف فيها ما يشاء. فقسّمها النّبي ﷺ بين المسلمين بالتساوي، وأمر أن يصطلح الإخوة المسلمون فيما بينهم[1].

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٢١١.

إنّ الآية - محل البحث - كما قرأنا في سبب النّزول، نزلت بعد معركة بدر وتتكلم عن غنائم الحرب وتبيّن حكماً إسلامياً واسعاً بشكل عام، فتخاطب النّبي بالقول: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾!.

فبناءً على ذلك ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي إنّ الإيمان ليس بالكلام فحسب، بل هو الطاعة لله والرّسول دون قيد أو شرط وفي جميع مسائل الحياة لا في غنائم الحرب وحدها.

ما هي الأنفال؟

الأنفال في الأصل مأخوذة من مادة «نفل» على زنة «نفع» ومعناها الزيادة، وإنما سمّيت الصلوات المستحبة نافلة لأنّها زيادة على الصلوات الواجبة، وكذلك يُطلَق على الحفيد نافلة لأنّه زيادة في الأبناء.

ويطلق لفظ «نوفل» على من يهب المزيد من العطاء.

وإنّما سمّيت غنائم الحرب أنفالاً أيضاً لأنّها كمية من الأموال الإضافية التي تبقى دون صاحب، وتقع في أيدي المقاتلين دون أن يكون لها مالك خاص، أو لأنّ المقاتلين إنّما يحاربون للانتصار على العدو لا للغنائم، فالغنيمة أو الغنائم موضوع إضافي يقع في أيديهم.

ملاحظات:

١ - بالرّغم من أنّ الآية محل البحث نازلة في شأن غنائم الحرب، إلاّ أنّ لمفهومها حكماً كلّياً وعامّاً، وهي تشمل جميع الأموال الإضافية التي ليس لها مالك خاص. لهذا ورد في الرّوايات عن أهل البيت عليهم السلام أنّ الأنفال لها مفهوم واسع، إذ نقرأ في بعض الرّوايات المعتبرة عن الإمامين «الباقر والصادق عليهما السلام» ما يلي: «إنّها ما أُخذ من دار الحرب من غير قتال، كالذي انجلى عنها أهلها وهو المسمّى فيئاً، وميراث من لا وارث له، وقطائع الملوك إذا لم تكن مغصوبة والآجام وبطون الأدوية والموات، فإنّها لله ولرسوله، وبعده لمن قام مقامه يصرفه حيث يشاء من مصالحه ومصالح عياله»[1].

---

(١) تفسير كنز العرفان، ج ١، ص ٢٥٤.

وبالرّغم من أنّ الحديث - آنف الذكر - لم يتحدّث عن جميع غنائم الحرب، إلاّ أنّنا نقرأ حديثاً آخر عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: «إنّ غنائم بدر كانت للنّبي خاصّة فقسمها بينهم تفضلاً منه»[1].

ونستنتج ممّا ذكر آنفاً أنّ مفهوم الأنفال أساساً لا يقتصر على غنائم الحرب فحسب، بل يشمل جميع الأموال التي ليس لها مالك خاص، وهذه الأموال جميعها لله وللرسول ولمن يلي أمره ويخلِفه، وبتعبير آخر: إنّ هذه الأموال للحكومة الإسلاميّة، وتصرف في منافع المسلمين العامّة.

غاية ما في الأمر أنّ قانون الإسلام في غنائم الحرب والأموال المنقولة التي تقع في أيدي المقاتلين المسلمين عند القتال - كما سنفصّل ذلك في هذه السورة - مبنيّ على أن يُعطى أربعةُ أخماسها - ترغيباً - للمقاتلين المسلمين وتعويضاً عن أتعابهم، ويصرف خمسها في المصارف التي أشارت إليها الآية (٤١) من هذه السورة.

وعلى هذا الأساس فإنّ الغنائم داخلة في مفهوم الأنفال العام، وهي في الأصل ملك الحكومة الإسلامية، وإعطاء أربعة أخماسها للمقاتلين عطيّة وتفضل منها.

٢ - قد يُتصور أنّ الآية محل البحث «بناءً على شمولها غنائم الحرب أيضاً» تتنافى والآية ٤١ من هذه السورة التي تقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ وسائر المصارف. لأنّ مفهومها أنّ أربعة أخماس الباقية هي للمقاتلين المسلمين.

إلاّ أنّه مع ملاحظة ما ذكرناه آنفاً يتّضح أنّ غنائم الحرب في الأصل كلها لله وللرسول صلى الله عليه وآله وإعطاء أربعة أخماسها للمقاتلين نوع من التفضل والهديّة، وبتعبير آخر: إنّ الحكومة الإسلامية تهب أربعة أخماس من حقها إلى المجاهدين، فلا يبقى عندئذ أي تنافٍ بين الآيتين.

ويتّضح أيضاً أن آية الخمس لا تنسخ آية الأنفال، - كما تصوّر ذلك بعض المفسّرين - بل كلٌّ منهما باقٍ على قوّته!

٣ - كما قرأنا في شأن النّزول آنفاً، أنّ مشاجرةً وقعت بين بعض الأنصار في شأن غنائم الحرب، وقطعاً لهذه المشاجرة فقد نفت الآية أن تكون الغنائم لغير الله والرّسول ثمّ أمرت المسلمين بإصلاح ذات البين.

---

(١) تفسير كنز العرفان، ج ١، ص ٢٥٤.

وأساساً فإنّ إصلاح ذات البين وإيجاد التفاهم وقلع عناصر الكدر والبغضاء من صدور المسلمين، وتبديل كل ذلك بالمحبّة، يعدّ من أهم الأغراض الإسلامية.

وكلمة «ذات» تعني الخلقة والبنية وأساس الشيء، والبين يعني حالة الارتباط والعلاقة بين شخصين أو شيئين، فبناءً على هذا فإنّ إصلاح ذات البين يعني إصلاح أساس الإرتباطات، وتقوية العلاقات وتحكيمها، وإزالة عوامل التفرقة والنفاق.

وقد أولت التعاليم الإسلامية عناية فائقة لهذا الموضوع حتى عدّته من أفضل العبادات.

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام في آخر وصاياه - بعد ما ضربه ابن ملجم بالسيف - لولديه: «إنّي سمعت جدّكما رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إصلاح ذات البين أفضل من عامّة الصلاة والصيام»[1].

وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام في كتاب الكافي أنّه قال: «صَدَقَةٌ يُحبُّها اللهُ إصلاحٌ بَيْنَ النَّاسِ إذا تَفَاسَدُوا، وتَقارُبٌ بَيْنَهُمْ إذا تَبَاعَدُوا»[2].

كما ورد عنه عليه السلام في الكتاب آنف الذكر ذاته أنّه قال للمفضل: «إذا رأيت بين اثنين من شيعتنا منازعة فافتدِها من مالي»[3].

ولهذا نقرأ في بعض الرّوايات عن أبي حنيفة سابق الحاج قال: مرَّ بنا المفضّل وأنا وختني نتشاجر في ميراث، فوقف علينا ساعة ثمّ قال لنا: تعالوا إلى المنزل فأتيناه فأصلح بيننا بأربعمائة درهم فدفعها إلينا من عنده حتى إذا استوثق كلّ واحد منّا من صاحبه، قال: أمّا إنّها ليست من مالي ولكن أبا عبد الله عليه السلام أمرني إذا تنازع رجلان من أصحابنا في شيء أن أُصلح بينهما وأفتديها من ماله، فهذا من مال أبي عبد الله عليه السلام[4].

والسبب في كل هذا التأكيد في المسائل الاجتماعية يتجلى بقليل من التأمل، لأنّ عظمة الأُمّة وقدرتها وعزّتها لا يمكن تحقيقه إلاّ في ظل التفاهم والتعاون. فإذا لم يتمّ إصلاح ذات البين، ولم تطو الخلافات الصغيرة والمشاجرات، تنفذ جذور العداوة والبغضاء في القلوب تدريجاً، وتتحول الأُمّة القوية المتّحدة إلى جماعات متفرقة

---

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٤٧؛ أصول الكافي، ج ٧، ص ٥١.
(٢-٤) الحديثان ١ و٢ من أصول الكافي، ج ٢، ص ٢٠٩؛ باب الإصلاح بين الناس.

متناحرة، وتضعف أمام الأعداء والحوادث، كما يحدق الخطر بالمسائل العبادية في مثل هذه الأُمّة من صلاة وصيام، وحتى بحيثية القرآن وسلامته وديمومته.

ولذلك فقد أوجبت الشريعة الإسلامية إصلاح ذات البين في بعض مراحله، وأجازت الإنفاق من بيت المال لتحقق هذا الأمر، وندبت إلى ذلك في مراحله الأُخرى التي لا تتعلق بمصير المسلمين مباشرة، وعدت ذلك مستحباً مؤكّداً....

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ) الأنفال آية ٢٠

لاشك في أنّ إطاعة أوامر الله تعالى واجبة على الجميع، المؤمنين وغير المؤمنين، ولكن بما أنّ المخاطبين والمعنيين بهذا الحديث التربوي هم المؤمنون فلهذا كان الكلام في هذه الآية الشريفة موجهاً إليهم.

الآية الثّانية: تؤكّد هذا المعنى أيضاً فتقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

إنّ هذا التعبير الطريف يُشير للذين يعلمون ولا يعملون، ويسمعون ولا يتأثرون، وفي ظاهرهم أنّهم من المؤمنين، ولكنّهم لا يطيعون أوامر الرسول ﷺ، فهؤلاء لهم آذان

قال تعالى (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) الأنفال آية ٤٦

كما أنّ من أهم أسس المبارزة والمواجهة هو الالتفات للقيادة وإطاعة أوامر القائد والآمر، الآمر الذي لولاه لما تحقق النصر في معركة بدر، لذلك فإنّ الآية بعدها تقول: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ لأنّ النزاع والفرقة أمام الأعداء يؤدّي إلى الضعف وخور العريمة، ونتيجة هذا الضعف والفتور هي ذهاب هيبة المسلمين وقوتهم وعظمتهم ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

«والريح» في اللغة، هي الهواء. فالنزاع يولد الضعف والوهن.

وأمّا ذَهاب الريح، فهو إشارة لطيفة إلى زوال القوّة والعظمة، وعدم سير الأُمور كما يرام، وعدم تحقق المقصود، لأنّ حركة الريح فيما يرام توصل السفن إلى مقاصدها، ولما كانت الريح في ذلك العصر أهم قوّة لتحريك السفن فقد كانت ذات أهميّة قصوى يؤمئذ.

وحركة الرّيح في الرّايات والبيارق تدل على ارتفاع الرّاية التي هي رمز القدرة والحكومة، والتعبير آنف الذكر كناية لطيفة عن هذا المعنى.

ثمّ تأمر الآية بالاستقامة بوجه العدوّ، وفي قبال الحوادث الصعبة، فتقول: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

والفرق بين ثبات القدم في الأمر الأوّل، والاستقامة والصبر في الأمر الخامس، هو من جهة أنّ ثبات القدم يمثل الناحية الظاهرية «الجسمية» أمّا الاستقامة والصبر فليسا ظاهريين، بل هما أمران نفسيان ومعنويان.

قال تعالى (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) التوبة آية ٧١

وتشرع الآية بذكر صفات المؤمنين والمؤمنات، وتبدأ ببيان أنّ بعضهم لبعض ولي وصديق ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

إنّ أوّل ما يلفت النظر أنّ كلمة ﴿أَوْلِيَآءُ﴾ لم تُذكر أثناء الكلام عن المنافقين، بل ورد (بعضهم من بعض) التي توحي بوحدة الأهداف والصفات والأعمال، ولكنّها تشير ضمناً إلى أنّ هؤلاء المنافقين وإن كانوا في صف واحد ظاهراً ويشتركون في البرامج والصفات، إلاّ أنّهم يفتقدون روح المودة والولاية لبعضهم البعض، بل إنّهم إذا شعروا في أي وقت بأنّ منافعهم ومصالحهم الشخصية قد تعرضت للخطر فلا مانع لديهم من خيانة حتى أصدقائهم فضلاً عن الغرباء، وإلى هذه الحالة تشير الآية (١٤) من سورة الحشر: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾.

وبعد بيان هذه القاعدة الكلية، تشرع ببيان الصفات الجزئية للمؤمنين:

١ - ففي البداية تبيّن أنّ هؤلاء قوم يدعون الناس إلى الخيرات ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

٢ - إنّهم ينهون الناس عن الرذائل والمنكرات ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

٣ - إنّهم بعكس المنافقين الذين كانوا قد نسوا الله، فإنّهم يقيمون الصلاة، ويذكرون الله فتحيا قلوبهم وتشرف عقولهم ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٤ - إنّهم - على عكس المنافقين والذين كانوا يبخلون بأموالهم - ينفقون أموالهم في سبيل الله وفي مساعدة عباد الله وبناء المجتمع وإصلاح شؤونه، ويؤدون زكاة أموالهم ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٥ - إنّ المنافقين فسّاق ومتمردون، وخارجون من دائرة الطاعة لأوامر الله، أمّا المؤمنون فهم على عكسهم تماماً، إذ ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

أمّا ختام الآية فإنّه يتحدث عن امتيازات المؤمنين، والمكافأة والثواب الذي ينتظرهم، وأوّل ما تعرضت لبيانه هو الرحمة الإلهيّة التي تنتظرهم فـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾.

إنّ كلمة (الرحمة) التي ذكرت هنا لها مفهوم واسع، ويدخل ضمنه كل خير وبركة وسعادة، سواء في هذه الحياة أو في العالم الآخر، وهذه الجملة في الواقع جاءت مقابلة لحال المنافقين الذين لعنهم الله وأبعدهم عن رحمته.

ولا شك أنّ وعد الله للمؤمنين قطعي ويقيني لأنّ الله قادر وحكيم، ولا يمكن للحكيم أن يعد بدون سبب، وليس الله القادر بعاجز عن الوفاء بوعده حين وعد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قال تعالى (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي) طه آية ٩٠

يقول القرآن: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ ثمّ أضاف: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

لقد كنتم عبيداً فحرّركم، وكنتم أسرى فأطلقكم، وكنتم ضالّين فهداكم، وكنتم متفرّقين مبعثرين فجمعكم ووحّدكم تحت راية رجل ربّاني، وكنتم جاهلين فألقى عليكم نور العلم وهداكم إلى صراط التوحيد المستقيم، فالآن ﴿فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾.

أنسيتم أنّ أخي موسى قد نصّبني خليفة له وفرض عليكم طاعتي؟ فلماذا تنقضون الميثاق؟ ولماذا ترمون بأنفسكم في هاوية الفناء؟

قال تعالى (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) النور آية ٥٤

ثمّ تضيف الآية أنّ هذا الأمر لا يخرج عن إحدى حالتين: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ ففي صورة العصيان فقد أدّى وظيفته وهو مسؤول عنها كما أنّكم مسؤولون عن أعمالكم حين أنّ وظيفتكم الطاعة، ولكن ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ لأنّه قائد لا يدعو لغير سبيل الله والحقّ والصواب.

في كل الأحوال ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ وإنّه ﷺ مكلّف بإبلاغ الجميع ما أمر الله به، فإن أطاعوه استفادوا، وإنْ لم يُطيعوه خَسروا، وَلَيْسَ على النّبي أن يجبر الناس على الهداية وتقبّل دعوته.

وما يلفت النظر في الآية السابقة تعبيرها عن المسؤولية بـ«الحملِ» الثقيل وهذا هو الواقع، فرسالة النّبي ﷺ تستوجب الإبلاغ عليه ﷺ وعلى الناس طاعته. إنّها لمسؤوليةٌ لا يطيق حملها إلاّ المخلصون.

ولذا روى الإمام الباقر عليه السلام حديثاً عن النّبي ﷺ قال فيه: «يا معشر قرّاءِ القرآن، اتقوا الله عزّ وجلّ فيما حملكم من كتابه، فإنّي مسؤول، وأنتم مسؤولون: إنّي مسؤول عن تبليغ الرسالة، وأمّا أنتم فتسألون عما حُمِلْتُم من كتاب الله وسنّتي»[1].

قال تعالى (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) النور آية ٥٦

، فهي تقول أوّلاً : ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ .

وهي الوسيلة التي توثق الصلة بين الخالق والمخلوق، وتقرّب الناس إلى بارئهم، وتمنع عنهم الفحشاء والمنكر.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهي الوسيلة التي تربط الإنسان بأخيه الإنسان، وتقلل الفواصل بينهما، وتقوي ارتباطهما العاطفي.

وبشكل عام يكون في كلّ شيء تبعاً للرسول : ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ طاعة تكونون بسببها من المؤمنين الصالحين الجديرين بقيادة الحكم في الأرض ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وتكونون لائقين لحمل راية الحقّ والعدل.

قال تعالى (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) الشعراء آية ١٠٨ و ١١٠ و ١٢٦ و١٣١ و١٤٤ و١٥٠ و ١٦٣و ١٧٩.

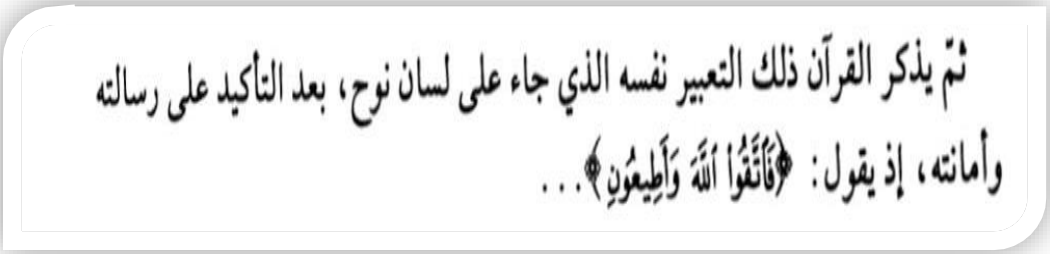

ثمّ يذكر القرآن ذلك التعبير نفسه الذي جاء على لسان نوح، بعد التأكيد على رسالته وأمانته، إذ يقول: ﴿فَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾...

قال تعالى (وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ) الشعراء آية ١٥١

وبعد ذكر هذه الانتقادات يتحدث النّبي صالح عليه السلام في القسم الثّالث من كلامه مع قومه، فيقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

ملاحظة:

العلاقة بين الإسرافِ والفساد في الأرض!

نعرف أن «الإسراف» هو التجاوز عن حدّ قانون التكوين وقانون التشريع... وواضح أيضاً أنّ أيّ تجاوز عن الحدّ موجب للفساد والاختلال وبتعبير آخر: إنّ مصدر الفساد هو الإسراف، ونتيجة الإسراف هي الفساد أيضاً.

وينبغي الالتفات إلى أنّ الإسراف له معنى واسع، فقد يطلق على المسائل المادية كالأكل والشرب، كما في الآية (٣١) من سورة الأعراف ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾.

وقد يَرِدُ في الانتقام والقصاص - عند تجاوز الحدّ - كما في الآية (٣٣) من سورة الإسراء... ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾.

وقد يستعمل في الإنفاق والبذل عند التبذير وعدم التدبير، كما في الآية (٦٧) من سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾.

وقد يأتي في الحكم أو القضاء الذي يجرّ إلى الكذب، كما في الآية (٢٨) من سورة غافر: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾!

وقد يستعمل في الاعتقاد المنتهي إلى الشك والتردد والارتياب كما في الآية (٣٤) من سورة غافر إذ تقول: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

وقد يأتي بمعنى الاستعلاء والاستكبار والاستثمار كما جاء في الآية (٣١) من سورة الدخان في شأن فرعون ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾.

وأخيراً فقد يأتي بمعنى مطلق الذنوب كما هو في الآية (٥٣) من سورة الزمر ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾.

وبملاحظة كل ما بيّناه آنفاً، تتّضح العلاقة بين الإسراف والفساد بجلاء...

يقول العلاّمة الطباطبائي في الميزان: «إن الكون على ما بين أجزائه من التضاد والتزاحم، مؤلف تأليفاً خاصاً يتلاءم معه أجزاؤه بعضها مع بعض في النتائج والآثار... فالكون يسير بالنظام الجاري فيه إلى غايات صالحة مقصودة، وهو بما بين أجزائه من الارتباط التام يخط لكل من أجزائه سبيلاً خاصّاً يسير فيها بأعمال خاصّة، من غير أن يميل عن حاق وسطها إلى يمين أو يسار أو ينحرف بإفراط أو تفريط، فإنّ في الميل والانحراف إفساداً للنظام المرسوم ويتبعه إفساد غايته وغاية الكل... ومن الضروري أن خروج بعض الأجزاء عن خطه المخطوط له، وإفساد النظم المفروض له ولغيره، يستعقب منازعة بقية الأجزاء له، فإن استطاعت أن تقيمه وترده إلى وسط الاعتدال فهو وإلاّ أفنته وعفت آثاره، حفظاً لصلاح الكون واستبقاءً لقوامه والإنسان الذي هو أحد أجزاء الكون غير مستثنى من هذه الكلية، فإن جرى على ما يهديه إليه الفطرة فاز بالسعادة المقدرة له، وإن تعدّى حدود فطرته وأفسد في الأرض، أخذه الله سبحانه بالسنين والمثلات وأنواع النكال والنقمة، لعله يرجع إلى الصلاح والسداد، قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

وإن أقاموا مع ذلك على الفساد - لرسوخه في نفوسهم - أخذهم الله بعذاب الاستئصال وطهّر الأرض من قذارة فسادهم قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2] [3].

ومن هنا يتّضح بجلاء، لِمَ ذكر الله سبحانه في الآيات المتقدمة الإسراف والفساد في الأرض وعدم الإصلاح، في سياق واحد ومنسجم.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٤١.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.
(٣) راجع تفسير الميزان، ج ١٥، ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

قال تعالى (وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) الزخرف آية ٦٣

تـقـول الآيـة أوّلاً: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وبهذا فقد كانت «البينات» - أي آيات الله والمعجزات - رأسمال عيسى، إذ كانت تبيّن حقانيته من جانب، وتبين من جانب آخر الحقائق المرتبطة بالمبدأ والمعاد واحتياجات حياة البشر.

ويصف عيسى عليه السلام محتوى دعوته ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ في عبارته، ونحن نعلم أنّ أساس الحكمة هو المنع من شيء بقصد إصلاحه، ثمّ أُطلقت على كل العقائد الحقّة، وبرامج الحياة الصحيحة التي تصون الإنسان من أنواع الانحراف في العقيدة والعمل، وتتناول تهذيب نفسه وأخلاقه، وعلى هذا فإنّ للحكمة هنا معنى واسعاً يشمل «الحكمة العلمية» و«الحكمة العملية».

ولهذه الحكمة - إضافة إلى ما مرّ - هدف آخر، وهو رفع الاختلافات التي تخلّ بنظام المجتمع، وتجعل الناس حيارى مضطربين، ولهذا السبب نرى المسيح عليه السلام يؤكّد على هذه المسألة.

وهنا يطرح سؤال التفت إليه أغلب المفسّرين، وهو: لماذا يقول: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ ولم لا يبيّن الجميع؟

وقد ذكرت أجوبة عديدة لهذا السؤال، وأنسبها هو:

إنّ الاختلافات التي بين الناس نوعان: منها ما يكون مؤثراً في مصيرهم من الناحية العقائدية والعملية، ومنها ما يكون في الأُمور غير المصيرية، كالنظريات المختلفة حول نشأة المنظومة الشمسية والسماوات، وكيفية الأفلاك والنجوم، وماهية روح الإنسان، وحقيقة الحياة، وأمثال ذلك.

ومن الواضح أنّ الأنبياء مكلّفون أن ينهوا الاختلافات من النوع الأوّل ويقتلعوها بواسطة تبيان الحقائق، ولكنّهم غير مكلّفين برفع كل اختلاف يكون بين الناس حتى وإن لم يكن له تأثير في مصير الإنسان مطلقاً.

ويحتمل أيضاً أن تبيان بعض الاختلافات نتيجة وغاية لدعوة الأنبياء، أي إنّهم سيوفقون أخيراً في حل بعض هذه الاختلافات، أمّا حلّ جميع الاختلافات في الدنيا فإنّه أمر غير ممكن، ولذلك تبيّن آيات متعددة من القرآن المجيد أنّ أحد خصائص

القيامة هو ارتفاع كل الاختلافات وانتهاؤها، فنقرأ في الآية (٩٢) من سورة النحل: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

وقد جاء هذا المعنى في الآيات، ٥٥ - آل عمران، ٤٨ - المائدة، ١٦٤ - الأنعام، ٦٩ - الحج، وغيرها[1].

وتضيف الآية في النهاية: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

(١) قال بعض آخر من المفسّرين: إن ﴿بَعْضَ﴾ هنا بمعنى الكل، أو أنّ التعبير بـ ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ إضافة موصوف إلى الصفة، أو أنّ هذا التعبير إشارة إلى أنّي أبيّن لكم أُمور الدين وحسب، لا اختلافاتكم في أمر الدنيا. إلاّ أن أيّاً من هذه التفاسير لا يستحق الاهتمام.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ) محمد آية ٣٣

واستدل بعض الفقهاء بجملة: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ على حرمة قطع الصلاة، ولكنّ الآية مورد البحث وما قبلها وما بعدها شاهدة على أنّها لا تتعلق بهذا الأمر، بل عدم الإبطال عن طريق الشرك والرياء والمنّ وأمثال ذلك.

قال تعالى (قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) الفتح آية ١٦

فمتى ما ندمتم عن أعمالكم وسيرتكم السابقة ورفعتم اليد عن عبادة الدنيا وطلب الراحة، فينبغي أن تؤدوا امتحان صدقكم في الميادين الصعبة وأن تسهموا فيها مرة أخرى، وإلا فإن اجتناب الميادين الصعبة، والمساهمة في الغنائم وميادين الراحة غير مقبول بأي وجه ودليل على نفاقكم أو ضعف إيمانكم وجبنكم.

الطريف هنا أن القرآن كرر التعبير بالمخلفين في آياته، وبدلا من الاستفادة من الضمير فقد عول على الاسم الظاهر. وهذا التعبير خاصة جاء بصيغة اسم المفعول «المخلفين» أي المتروكين وراء الظهر،

في الواقع، إنّ أسلوب حياة المؤمنين وبرنامجهم يقع في الطرف المقابل للكفّار والمنافقين في كلّ شيء، فهؤلاء يعصون أمر الله سبحانه، وأُولئك يطيعونه، هؤلاء يعادون النّبي، وأولئك يطيعون أمره هؤلاء تحبط أعمالهم لكفرهم ورياءهم ومنّتهم، أمّا أولئك فإنّ أعمالهم محفوظة عند الله سبحانه وسيثابون عليها، لاجتنابهم هذه الأُمور.

وعلى كلّ حال، فإنّ أُسلوب الآية يوحي بأنّ من بين المؤمنين أفراداً كانوا قد قصروا في طاعة الله ورسوله وفي حفظ أعمالهم عن التلوث بالباطل، ولذلك فإنّ الله سبحانه يحذّرهم في هذه الآية.

والشاهد لهذا الكلام سبب النّزول الذي ذكره البعض لهذه الآية، وهو: إنّ «بني أسد» كانوا قد أسلموا وأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنّنا نؤثرك على أنفسنا، ونحن وأهلونا رهن إشارتك وأمرك. غير أنّ أسلوبهم في الكلام كانت تلوح منه المنّة، فنزلت الآية أعلاه، وحذّرتهم من ذلك.

وهو إشارة إلى أنّ المسلمين المؤمنين حين كانوا يشاهدون ضعف هؤلاء وتذرعهم بالحيل كانوا يخلّفونهم وراء ظهورهم ولا يعتنون أو يكترثون بكلامهم! ويسرعون إلى ميادين الجهاد!.

ولكن من هم هؤلاء القوم المعبّر عنهم بـ﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ في الآية وأي جماعة هم؟! هناك كلام بين المفسّرين..

وجملة ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ تدلُّ على أنّهم ليسوا من أهل الكتاب، لأنّ أهل الكتاب لا يُجبرون على قبول الإسلام، بل يُخيّرون بين قبوله أو دفع الجزية والحياة مع المسلمين على شروط أهل الذمّة.

وإنّما الذين لا يُقبل منهم إلاّ الإسلام هم المشركون وعبدة الأصنام فحسب، لأنّ الإسلام لا يعترف بعبادة الأصنام ديناً ويرى أنّه لابدّ من إجبار الناس على ترك عبادتها.

ومع الالتفات إلى أنّه لم تقع معركة مهمّة في عصر النّبي بعد حادثة الحديبيّة مع المشركين سوى فتح مكّة وغزوة حنين، فيمكن أن تكون الآية المتقدّمة إشارة إلى ذلك وخاصّة غزوة حنين لأنّها اشترك فيها أولو بأس شديد من «هوازن» و«بني سعد».

وما يراه بعض المفسّرين من احتمال أنّ الآية تشير إلى غزوة (مؤتة) التي حدثت مع أهل الروم فهذا بعيد، لأنّ أهل الروم كانوا كتابيين.

واحتمال أنّ المراد منها الغزوات التي حدثت بعد النّبي ومن جملتها غزوة فارس واليمامة، فهذا أبعد بكثير، لأنّ لحن الآيات مشعر بأنّ الحرب ستقع في زمان النبيّ ولا يلزمنا أبداً أن نطبّق ذلك على الحروب التي حدثت بعده، ويظهر أنّ للدوافع السياسية أثراً في بعض أفكار المفسّرين في هذه القضية!.

وهنا ملاحظة جديرة بالتأمّل وهي أنّ النّبي ﷺ لا يَعِدُهم بالقول أنّهم سيغنمون في الحروب والمعارك المقبلة، لأنّ الهدف من الجهاد ليس كسب الغنائم بل المعوّل عليه هو ثواب الله العظيم وهو عادةً إنّما يكون في الدار الآخرة!

وهنا ينقدح هذا السؤال، وهو أنّ الآية (٨٣) من سورة التوبة تردّ ردّاً قاطعاً على هؤلاء المخلّفين فتقول: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾.

في حين أنّ الآية محل البحث تدعوهم إلى الجهاد والقتال في ميدان صعب ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾. فما وجه ذلك؟

ولكن مع الالتفات إلى الآية (٨٣) في سورة التوبة تتعلق بالمخلّفين في معركة تبوك الذين قطع النّبي الأمل منهم، أمّا الآية محل البحث فتتحدّث عن المخلّفين عن الحديبيّة، وما يزال النّبي يأمل فيهم المشاركة، فيتّضح الجواب على هذا الإشكال!.

وحيث إنّ من بين المخلّفين ذوي أعذار لنقص عضوي في أبدانهم أو لمرض وما الى ذلك فلم يقدروا على الاشتراك في الجهاد، ولا ينبغي أن نُجحد حقهم، فإنّ الآية الأخيرة من الآيات محلّ البحث تبيّن أعذارهم وخاصّة أنّ بعض المفسّرين قالوا إنّ جماعة من المعوّقين جاؤوا إلى النّبي بعد نزول الآية وتهديدها للمخلّفين بقولها ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، فقالوا: يا رسول الله ما هي مسؤوليتنا في هذا الموقع؟ فنزل قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

وليس الجهاد وحده مشروطاً بالقدرة، فجميع التكاليف الإلهيّة هي سلسلة من الشرائط العامة ومن ضمنها الطاقة والقدرة، وكثيراً ما أشارت الآيات القرآنية إلى هذا المعنى وفي الآية (٢٨٦) من سورة البقرة نقرأ تعبيراً كلياً عن هذا الأصل وهو: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

وهذا الشرط ثابت بالأدلة النقلية والعقليّة!.

وبالطبع فإن هذه الجماعة وإن كانت معذورة من الاشتراك في ميادين الجهاد، إلاّ أنّ عليها أن تساهم بمقدار ما تستطيع لتقوية قوى الإسلام وتقدّم الأهداف الإلهيّة كما نقرأ ذلك في الآية (٩١) من سورة التوبة: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

أي أنّهم إذا لم يستطيعوا أن يؤدّوا عملاً بأيديهم، فلا ينبغي أن يألوا جهداً فيما يقدرون عليه ولا يعتذروا بألسنتهم عنه، وهذا التعبير الطريف يدلّ على أنّه لا ينبغي الإغماض عن القدرات أبداً، وبتعبير آخر أنّهم إذا لم يستطيعوا أن يشاركوا في الجبهة فعلى الأقل عليهم أن يُحكموا المواضع الخلفية للجبهة!

ولعلّ الجملة الأخيرة في الآية محل البحث تشير أيضاً إلى هذا المعنى فتقول: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وهذا الاحتمال وارد أيضاً، وهو أنّ بعض الأفراد في المواقع الاستثنائية يعتذرون عن المساهمة [ويسيئون فهم النص] فالقرآن هنا يحذّرهم أنّهم إذا لم يكونوا معذورين واقعاً فإنّ الله أعدّ لهم عذاباً أليماً.

ومن نافلة القول أنّ كون المريض والأعمى والأعرج معذورين خاص بالجهاد، أمّا في الدفاع عن حمى الإسلام والبلد الإسلامي والنفس فيجب أن يدافع كلٌّ بما وسعه، ولا استثناء في هذا المجال!

قال تعالى (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) الحجرات آية ١٤

وطبقاً لمنطوق الآية فإنّ الفرق بين «الإسلام» و«الإيمان» في أنّ: الإسلام له شكل ظاهري قانوني، فمن تشهد بالشهادتين بلسانه فهو في زمرة المسلمين وتجري عليه أحكام المسلمين.

أمّا الإيمان فهو أمر واقعي وباطني، ومكانه قلب الإنسان لا ما يجري على اللسان أو ما يبدو ظاهراً!

الإسلام ربّما كان عن دوافع متعدّدة ومختلفة بما فيها الدوافع الماديّة والمنافع الشخصية، إلاّ أنّ الإيمان ينطلق من دافع معنوي، ويسترفد من منبع العلم، وهو الذي تظهر ثمرة التقوى اليانعة على غصن شجرته الباسقة!

وهذا ما أشار إليه الرّسول الأكرم ﷺ في تعبيره البليغ الرائع: «الإسلام علانية والإيمان في القلب»(١).

كما إنّا نقرأ حديثاً آخر عن الإمام الصادق يقول فيه: الإسلام يحقن الدم وتؤدّى به الأمانة وتستحلُّ به الفروج والثواب على الإيمان(٢).

وربَّما كان لهذا السبب أنّ بعض الروايات تحصر مفهوم الإسلام بالإقرار اللفظي، في حين أنّ الإيمان إقرار باللسان وعمل بالأركان، إذ تقول الرواية «الإيمان إقرار وعمل، والإسلام إقرار بلا عمل»(٣).

وهذا المعنى نفسه وارد في تعبير آخر في بحث الإسلام والإيمان، يقول «فضيل بن يسار» سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: إنّ الإيمان يشارك الإسلام ولا يشاركه الإسلام، إنّ الإيمان ما وقر في القلوب والإسلام ما عليه المناكح والمواريث وحقن الدماء(٤).

وهذا التفاوت في المفهومين فيما إذا اجتمع اللفظان معاً، إلاّ أنّه إذا انفصل كلٌّ عن الآخر فربَّما أطلق الإسلام على ما يُطلق عليه بالإيمان، أي أنّ اللفظين قد يستعملان في معنى واحد أحياناً.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص١٣٨.
(٢) أصول الكافي، ج٢، باب أنّ الإسلام يحقن به الدم، الحديثان ١، ٢.
(٣) المصدر السابق، ح ٢.
(٤) أصول الكافي، ج٢، باب أنّ الإيمان يشرّك الإسلام، ح ٣.

ثمّ تضيف الآية محل البحث فتقول: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ وسيوفّيكم ثواب أعمالكم بشكل كامل ولا ينقص منها شيئاً.

وذلك لـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿لَا يَلِتْكُم﴾ مشتقٌّ من «لَيت» على زنة (ريب) ومعناه الإنقاص من الحق(١).

والعبارات الأخيرة في الحقيقة إشارات إلى أصل قرآني مسلّم به وهو أنّ شرط قبول الأعمال «الإيمان»، إذ مضمون الآية أنّه إذا كنتم مؤمنين بالله ورسوله إيماناً قلبياً وعلامته طاعتكم لله والرّسول فإنّ أعمالكم مقبولة، ولا ينقص من أجركم شيء، ويثيبكم الله، وببركة هذه الأعمال يغفر ذنوبكم لأنّ الله غفور رحيم.

قال تعالى (أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) المجادلة آية ١٣

ويعكس لنا التعبير بـ(التوبة) أنّهم في نجواهم السابقة كانوا قد ارتكبوا ذنوباً، سواء في التظاهر والرياء، أو أذى الرّسول ﷺ أو أذى المؤمنين الفقراء.

وبالرغم من عدم التصريح بجواز النجوى في هذه الآية بعد هذا الحادث، إلاّ أنّ تعبير الآية يوضّح لنا أنّ الحكم السابق قد رفع.

أمّا الدعوة لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله ورسوله فقد أكّد عليها بسبب أهميّتها، وكذلك هي إشارة إلى أنّه إذا تناجيتم فيما بعد فيجب أن تكون في خدمة الأهداف الإسلامية الكبرى وفي طريق طاعة الله ورسوله.

قال تعالى (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) التغابن آية ١٢

وقد يراد من هذا التعبير الإشارة إلى الهدف من وراء هذه الامتحانات والاختبارات الصعبة، وهو إيقاظ الناس وتربيتهم وإعدادهم لمجابهة الغرور والغفلة، وسيؤثر ذلك حتماً ويدفع الإنسان إلى طاعة الله ورسوله، و﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

لا يخفى أنّ إطاعة الرّسول فرع عن إطاعة الله تعالى وطاعة الرّسول تقع في طول طاعة الله، فهما في خطّ واحد، وهذا ما جعله يكرّر كلمة إطاعة.

وإذا ما حاولنا الذهاب أبعد من ذلك، فإنّ طاعة الله تتعلّق بأُصول القوانين والتشريعات الإلهيّة، بينما طاعة الرّسول في تفسيرها وفي المسائل التنفيذية وفي التفاصيل، فعلى هذا تكون الأولى هي الأصل، والثانية فرع.

ثمّ يضيف قائلاً: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[1].

نعم، إنّ الرّسول ملزم بتبليغ الرسالة، وسيتولّى الباريء جلّ شأنه محاسبتكم، وهذا نوع من التهديد الخفي الجادّ.

قال تعالى (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ۗ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) التغابن آية ١٦

وجاء في الآية اللاحقة: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ لقد أمر الله تعالى أوّلاً باجتناب الذنوب، ثمّ بإطاعة الأوامر، وتعدّ الطاعة في قضيّة الإنفاق مقدّمة لتلك الطاعة، ثمّ يخبرهم أنّ خير ذلك يعود إليكم ولأنفسكم.

قال بعضهم: إنّ «خيراً» تعني (المال) وهو وسيلة لتحقيق بعض الطاعات، وما جاء في آية الوصية يعتبر تعزيزاً لهذا المعنى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾[1].

وذهب البعض إلى أنّ كلمة ﴿خَيْرًا﴾ جاءت بمعناها الواسع، ولم يعتبروها قيداً للإنفاق، بل هي متعلّقة بالآية ككل، فإنّ ثمار الطاعة - كما يقولون - تعود لكم، وربّما يكون هذا التفسير أقرب من غيره[2].

والأمر بالتقوى بقدر المستطاع لا يتنافى مع ما جاء في الآية (١٠٢) من سورة آل عمران حيث تقول: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ بل هي مكمّلة لتلك ومن المسلّم أنّ أداء حقّ التقوى لا يكون إلاّ بالقدر الذي يستطيعه الإنسان، إذ يتعذّر التكليف بغير المقدور.

فلا مجال لاعتبار الآية - مورد البحث - ناسخة لتلك الآية في سورة آل عمران كما اعتقد البعض.

وللتأكيد على أهميّة الإنفاق ختمت الآية بـ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿شُحَّ﴾ بمعنى «البخل المرادف للحرص»، ومن المعلوم أنّ هاتين الخصلتين السيّئتين من أكبر الموانع أمام فوز الإنسان، وتغلق عليه سبيل الإنفاق وتصدّه عن الخير، ومن يتخلّص من هاتين الخصلتين السيّئتين فلا شكّ أنّه سيضمن السعادة.

هذا وتوجد رواية عن الإمام الصادق عليه السلام تقول: «من أدّى الزكاة فقد وقى شحّ نفسه»[3]. ويبدو أنّ ذلك أحد المصاديق الحيّة في مسألة الشحّ وليس كلّ (الشحّ).

وفي حديث آخر عن الصادق عليه السلام - أيضاً -: رأيت أبا عبد الله عليه السلام يطوف من

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.

(٢) على التفسير الأوّل تكون ﴿خَيْرًا﴾ مفعول للفعل ﴿وَأَنفِقُوا﴾، وعلى الثاني تكون خبراً لفعل مقدّر، وتقديره «يكن خيراً لكم».

(٣) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٣٠١.

أوّل الليل إلى الصباح وهو يقول: «اللهمّ قني شحّ نفسي» فقلت: جعلت فداك ما سمعتك تدعو، بغير هذا الدعاء قال: «وأي شيء أشدّ من شحّ النفس وأنّ الله يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾»[1].

قال تعالى (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ) نوح آية ٣

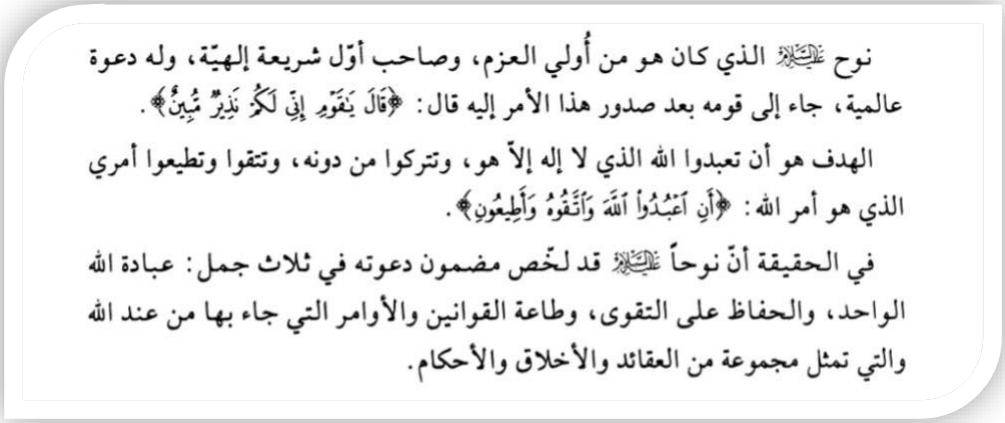

نوح عليه السلام الذي كان هو من أُولي العزم، وصاحب أوّل شريعة إلهيّة، وله دعوة عالمية، جاء إلى قومه بعد صدور هذا الأمر إليه قال: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

الهدف هو أن تعبدوا الله الذي لا إله إلاّ هو، وتتركوا من دونه، وتتقوا وتطيعوا أمري الذي هو أمر الله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾.

في الحقيقة أنّ نوحاً عليه السلام قد لخّص مضمون دعوته في ثلاث جمل: عبادة الله الواحد، والحفاظ على التقوى، وطاعة القوانين والأوامر التي جاء بها من عند الله والتي تمثل مجموعة من العقائد والأخلاق والأحكام.

دعاء المهدي (عليه السلام)

يا نور النور يا مدبر الأمور يا باعث من في القبور صل على محمد وآل محمد

واجعل لي ولشيعتي من الضيق فرجاً ومن الهم مخرجاً واوسع لنا منهجا واطلق

لنا ما عندك ما يفرج وافعل بنا ما أنت اهله يا كريم يا أرحم الراحمين.

(نقلاً من كتاب ضياء الصالحين)

تم بحم الله